إسهامات الخطاب القرآني في مكافحة التلوث البيئي وجهود الهيئة العامة للبيئة الكويتية

د. أحمد حمد سليمان الصقعبي(*)

(*) أستاذ مساعد بقسم التفسير والحديث بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت.

ملخص البحث:

يعالج هذا البحث واحدة من أهم قضايا عالمنا المعاصر، ومن أكثرها حاجة لصلتها الوثيقة بالإنسان، وهي قضية البيئة من منظور تحليل قرآني، ويهدف إلى التعرف على إسهامات القرآن، وأثره في معالجة فساد البيئة، ورصد أسبابها، ومخاطرها، وسبل التعامل معها، وتسجيل السبق القرآني في معالجة قضايا تمس سلامة البيئة والمحافظة عليها، وجهود الهيئة العامة للبيئة الكويتية في المحافظة على البيئة.

يتضمن البحث مقدمة شرحت فيها أهداف البحث، وبينت أهميته، وستة مباحث، ثم خاتمة استخلصت فيها أهم النتائج المتمخضة عن هذه الدراسة.

المقدمة:

قبل القرن التاسع عشر الميلادي كان العلم يسير بخطى متوازنة بما يتفق مع سلامة البيئة، والمحافظة على استقرارها، إلا أن هذا التوازن لم يدم طويلاً، وتحديداً بعد الثورة الصناعية الكبرى في شتى مجالات الحياة، والتنافس المحموم بين الدول المصنعة في بناء اقتصاد سريع، وتحقيق أرباح ومآرب مادية، دون مراعاة ضرورة المحافظة على التوازن البيئي، أو حتى التفكير في ترشيد استهلاكها، الأمر الذي تسبب في كثير من التغيرات المناخية، وارتفاع درجة حرارة الأرض، مما نشأ عنه صعوبة التعامل مع مثل هذه الأمور الطارئة رغم النداءات المتكررة بسبب التأخر في معالجتها، وعدم الجدية في وضع جدول زمني يكفل حلها، وذلك بسبب الربط بين تحسين المعيشة وزيادة التصنيع، والمضي قدماً نحو ذلك دون مبالاة.

ومهما يكن من أمر، فإن القرآن الكريم قد أرسى قبل ما يزيد عن أربعة عشر قرناً قواعد عامة، وضوابط محددة تستوعب معالجة الشؤون الحياتية كاملة، وتنظم علاقة الفرد مع محيطه، وبيئته التي يعيش فيها و يستغل مواردها، ويستفيد من خيراتها.

وعليه فإن انعكاسات إفساد البيئة يعود ضرره على كل فرد يعيش على وجه هذه الأرض، فالمسؤولية مشتركة، وتقع على عاتق الجميع، ومن ثم تنادي العالم بأسره إلى ضرورة وضع حد لهذه التجاوزات، ولكن دون جدوى؛ لأن الكل يعمل بمفرده، ولانعدام القوانين الرادعة مثل القوانين القرآنية التي حذرت منذ زمن بعيد من العواقب الوخيمة جراء التدخلات المفسدة.

أهم أهداف البحث:

أ – التعريف بالثقافة البيئية في ضوء التوجيهات القرآنية.

ب – إبراز إسهامات القرآن في المحافظة على البيئة.

جـ – كشف حدود العلاقة بين البيئة والإنسان.

د – التعريف ببعض جهود الهيئة العامة للبيئة في الكويت.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في أن التلوث البيئي بات خطراً يهدد حياة كل إنسان، على كوكب الأرض على وجه الحقيقة؛ لذلك تنادى عقلاء العالم إلى وضع حد ملزم لكل الدول، وإبرام مواثيق لتقليص حجم (هذه الكارثة وآثارها)، فلم تعد التحذيرات وحدها تكفي، فالدمار شامل، والضرر عام تقع مسؤوليته على عاتق الشعوب والحكومات.

فالمشكلة: أن الفرد يسعى إلى مزيد من تحقيق رفاهية العيش، والحكومات تسعى إلى تسجيل أعلى نمو اقتصادي دون مراعاة الأضرار الكارثية الناجمة عن ذلك.

وقد اتضح لي أن الأبحاث التي كتبت حول موضوع البيئة تركز في معظمها على قضايا ذات طابع فقهي أو علمي نظري، يستمد بعض رؤيته من القرآن والسنة النبوية، دون التعويل كثيراً على استنطاق الآيات القرآنية المباشرة – منها – وغير المباشرة، التي تسهم في تحديد بذور المشكلة والتوعية بأسبابها.

ولذا جاء هذا البحث لبيان مدى استيعاب الآيات القرآنية لهذه المشكلة التي لم ينتبه لها العالم إلا من قريب.

وقد قمت بتقسيمه إلى:

مقدمة وستة مباحث وخاتمة.

- **مقدمة: شرحت فيها أهمية الموضوع وأهدافه.**
- **المبحث الأول: حول ورود كلمة البيئة في القرآن الكريم، وبيان المراد بالبيئة والتلوث.**
- **المبحث الثاني: أهمية الملوثات وأضرارها، ودور الهيئات والمنظمات في مكافحتها.**

- المبحث الثالث: العلاقة بين التوازن البيئي والإنسان في القرآن، ومدى صلتهما بالتلوث البيئي.
- المبحث الرابع: التحذيرات القرآنية من الإفساد وعلاقة ذلك بالتلوث البيئي.
- المبحث الخامس: تطابق نتائج مؤتمر فرنسا مع قوله تعالى: " ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس.... "
- المبحث السادس: جهود الهيئة العامة للبيئة الكويتية.
- الخاتمة: وفيها استخلاص أهم النتائج.

المبحث الأول
حول ورود كلمة البيئة في القرآن الكريم، وبيان المراد بالبيئة والتلوث

البند الأول: ورود كلمة البيئة في القرآن الكريم

إن المتأمل في آيات القرآن الكريم يلحظ أن القرآن الكريم لم يستعمل كلمة "البيئة " بهذه اللفظة على وجه الخصوص، وإنما وردت من جهة الاشتقاق كما في قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾[1].

وذلك يعني أنه سبحانه بوأ الأرض، أي هيأها لتكون بيئة مناسبة لاستصلاحها والاستفادة من خيراتها.

وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾[2]

وبالرجوع إلى معاجم اللغة نجد أنها ركزت على معنيين اثنين هما:

١ – النزول والإقامة، فيقال تبوأ المكان إذا نزل وأقام فيه، ومنه: قوله تعالى شاهداً لهذا المعنى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[3]

٢ – اتخاذ المكان وإصلاحه، ومنه قوله تعالى: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾[4] أي اتخذا وهيئا بمصر بيوتاً.[5]

وبهذا يتبين أن هناك تطابقاً بين مدلول كلمة "بيئة"، وبين الجذر اللغوي لمادتها وهو "بوأ".

---

(١) سورة الأعراف آية (٧٤).
(٢) سورة يوسف آية (٥٦).
(٣) سورة الحشر آية (٩).
(٤) سورة يونس آية (٨٧).
(٥) انظر: لسان العرب (١/ ٥٣١–٥٣٢)، معجم مفردات القرآن للأصفهاني صـ ٧٥.

لكن ما يلاحظ أن القرآن الكريم في استعماله لم يشتق اسم "البيئة" – للدلالة على محيط البيئة – من الجذر اللغوي "بوأ " وإنما اشتق أفعالاً كما في قوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾[1]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾[3]، وقوله: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[4] وهكذا لو تتبعنا سائر الآيات.

وذلك – على حد تعبير أحد الباحثين – "حتى لا ينصرف الذهن كما ذهب إلى ذلك الماديون عندما قصروا الاستخدام على الاسم فقط وهو "البيئة" فاعتقدوا أنها وجدت هكذا بدون فاعل أعظم، أو بدون خالق حتى لا ينصرف الذهن عن الفاعل الأصلي.."[5].

وبذلك يتأكد أن الاستعمال القرآني بشتى صيغه وأوزانه، إنما ورد ليحدد مدلول البيئة وماهيتها.

البند الثاني: مفهوم البيئة.

يصادف الباحث تعريفات متنوعة حول تحديد مفهوم البيئة العلمي عند الباحثين، وهي وإن كانت متغايرة في صياغتها، إلا أنها تكاد أن تكون متقاربة في دلالتها.

ويشيع بين الباحثين في شؤون البيئة ذلك التعريف الذي ورد في مؤتمر الأمم المتحدة الذي عقد في استوكهولم عام (١٩٧٢م) بأنها "رصيد من النظم، والموارد الاجتماعية والثقافية المحيطة بالإنسان التي يستمد منها، ويؤدي فيها نشاطه".[6]

---

(١) سورة النحل آية (٤١).
(٢) سورة الحشر آية (٩).
(٣) سورة يوسف آية (٥٦).
(٤) سورة الأعراف آية (٧٤).
(٥) انظر: التلوث وحماية البيئة د. محمد منير حجاب صـ ١٣.
(٦) انظر: بيئة من أجل البقاء د. الحفار صـ ٦٢، أحكام البيئة في الفقه الإسلامي د. عبد الله السحيباني صـ ٢٤.

ويبدو لي أن هذا التعريف هو الأصل الذي استمدت منه التعاريف الأخرى صياغتها، إذ أنها تركز في مجملها على ذلك الوسط الذي يحيط بالإنسان، فيؤثر فيه، ويتأثر به.

وقد جمعت هذه التعاريف في مجلة البيئة والتنمية بأنها ذلك الحيز الذي يمارس فيه البشر مختلف أنشطة حياتهم، وتشمل ضمن هذا الإطار كافة الكائنات الحية من حيوان ونبات التي يتعايش معها الإنسان، ويشكلان سوياً سلسلة متصلة فيما يمكن أن نطلق عليه – جوازاً – دورات طاقات الحياة.[١]

وأعتقد أن توصيف التعاريف في مجملها على أن البيئة هي الوسط المحيط بالإنسان، هو وصف مناسب مع اعتبار المعاني اللغوية السابقة المتعلقة بإصلاح البيئة وتهيئتها ثم النزول والإقامة فيها، وحينئذ يمكن أن تجتمع في هذا الإطار العام.

البند الثالث: مفهوم التلوث.

مما لا ريب فيه أننا لا نعني بذلك التلوث المعنوي، كتلوث الفكر أو العقيدة، وإنما نعني ذلك التلوث الحسي الذي عرفه علماء اللغة بأنه الاختلاط أو التلطيخ، فيقال: " لاثه في التراب ولوثه "[٢] إذا خلطه.

وإن كان يمكننا القول: "إن التلوث بشقيه: المادي والمعنوي يعني فساد الشيء أو تغير خواصه، وهو معنى يقترب من المفهوم العلمي الحديث للتلوث، والذي ينص على أنه: إفساد مكونات البيئة، حيث تتحول هذه المكونات من عناصر مفيدة إلى عناصر ضارة".[٣]

في حين يعرف علماء آخرون التلوث بأنه إدخال أي مادة أو مركب إلى

---

(١) انظر: مجلة التنمية والبيئة صـ ٧٢، الإنسان وتلوث البيئة – محمد السيد صـ ١٧.
(٢) انظر: لسان العرب (١٠/٣٥٣).
(٣) انظر: البيئة – مشاكلها وقضاياها – مهندس محمد الفقي صـ ٣٢.

المحتوى الأصلي للمادة والذي يؤدي إلى تغير اللون أو الطعم أو الشكل أو الرائحة للمادة الأصلية.

أو أن التلوث هو التغير في الصفات الطبيعية للعناصر التي تتحكم في البيئة التي يعيش فيها الإنسان.[١]

ويمكن أن يجمع بين ما سبق بأن التلوث عبارة عن اختلاط مواد غريبة مع عناصر البيئة الأساسية من ماء وتراب وهواء يؤدي إلى إفسادها.

فإذا كان ثاني أكسيد الكربون من العناصر المفيدة في الهواء، فإنه قد يتحول إلى أن يكون عنصراً ضاراً إذا زاد تركيزه عن المعدلات الآمنة.

(١) انظر: قضايا البيئة من منظور إسلامي صـ ١٣٥، البيئة والإنسان د. زين الدين عبد المقصود صـ ١١١.

المبحث الثاني
أهم الملوثات وأضرارها ودور المنظمات والهيئات في مكافحتها

البند الأول: أهم الملوثات وأضرارها:

١ – غاز أول أكسيد الكربون.

وهو غاز لا لون له ولا رائحة، ومصدره: احتراق الوقود، مثل عوادم السيارات، أو احتراق الفحم أو الحطب، وهو أخطر أنواع تلوث الهواء، وأشدها ضرراً على الإنسان، حيث يتسبب زيادة تركيزه في الهواء إلى الشعور بالتعب، وصعوبة التنفس، وضعف في السمع، وربما الإغماء والوفاة خلال ساعتين.

٢ – غاز ثاني أكسيد الكربون.

يُعدّ غاز ثاني أكسيد الكربون الناتج من الوقود من أخطر الملوثات التي أدخلها الإنسان على الهواء، حيث يؤدي زيادته إلى صعوبة في التنفس، والشعور بالاحتقان، مع تهيج للأغشية المخاطية، والتهاب القصبات الهوائية.

وتجدر الإشارة إلى أن الإسراف في استخدام الوقود، وقطع الغابات أو التقليل من المساحات الخضراء ساهم في ارتفاع نسبة غاز ثاني أكسيد الكربون في الجو مما يؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض، وهو ما يعرف بالاحتباس الحراري.[١]

٣ – غاز كبريتيد الهيدروجين.

هو غاز ذو رائحة تشبه البيض الفاسد، ويتكون من تحلل المواد العضوية،

---

(١) راجع في مسألة الاحتباس الحراري مؤلف الأستاذ / جمال كامل العبايجي بعنوان "الاحتباس الحراري" وآخر بعنوان الاحتباس الحراري الدفيئة الجوية للأستاذ / علي حسن موسى.

مثل مياه الصرف الصحي، وهو غاز سام وقاتل، ويؤثر على الجهاز العصبي، مما يؤدي إلى خمول في القدرة على التفكير، وصعوبة في التنفس.

٤ – الرصاص.

يخرج الرصاص من عوادم السيارات إلى الهواء، محدثاً تلوثاً به وخاصة في المدن المزدحمة التي تستخدم بنزين الرصاص.

ومن أضراره: أنه يسبب الصداع، والضعف العام، وقد يؤدي إلى غيبوبة وإلى حدوث تشنجات قد تؤدي للوفاة.

٥ – بعض الشوائب والمواد العالقة.

كثير من المصانع تطلق أبخرة في الهواء تحتوي على مركبات شديدة السمية مثل مركبات الفوسفور، والزرنيخ، والكبريت، كما تحمل معها بعض المعادن الثقيلة، كالزئبق، والرصاص، وتبقى هذه المواد الشائبة معلقة في الهواء على هيئة رذاذ أو ضباب خفيف.(١)

٦ – الأمطار الحمضية.

ويشير أحد أساتذة الفيزياء إلى ماهية وكيفية نشوء الأمطار الحمضية، وأثرها على الكائنات الحية عموماً والإنسان خصوصاً فيقول: المطر الحمضي هو المطر الذي يكتسب الصفة الحمضية التي يمتلكها بسبب ذوبان الغازات الضارة فيه.

وتؤدي هذه الأمطار إلى تلف الكثير من النباتات، والأشجار، ومياه الأنهار، وكذلك الأراضي، ولخطورتها فقد قدرت خسائر ألمانيا الغربية – خلال عام واحد – حوالي (٦٠٠) مليون دولار نتيجة إتلاف المحاصيل الزراعية.(٢)

---

(١) انظر للمزيد: الإنسان والبيئة د. حمزة العباسي صـ ٧ فما بعدها، على شبكة الانترنت.

(٢) انظر: ظاهرة الأمطار الحمضية – الأستاذ حسن يوسف – مقال في الانترنت.

٧ – الصرف الصحي

تكمن المشكلة عندما تلقي المدن الساحلية مياه الصرف الصحي في البحار دون معالجة، إذ تحتوي مياه المجاري على كمية كبيرة من المركبات العضوية، وأعداد رهيبة من الكائنات الحية الدقيقة الهوائية واللاهوائية مسببة نقصاً في الأوكسجين إذا ألقيت في البحر، وبذلك تختنق الكائنات التي تعيش في البحر، وقد تموت، وعند موتها تبدأ مرحلة التحلل والعفونة، ثم ينسحب هذا الضرر البالغ على مياه المسطح المائي فلا تعود صالحة للاستعمال الآدمي.

٨ – المبيدات الحشرية والأسمدة الكيمائية

إن استخدام المبيدات الحشرية والأسمدة الكيميائية في الزراعة يتسبب في تلوث الماء وذلك عند سقوط الأمطار حيث تجرف تلك المواد إلى الأنهار أو البحيرات، وأيضاً الري قد ينقل تلك المواد إلى المياه الجوفية.[١]

البند الثاني: دور المنظمات والهيئات في مكافحة التلوث

حينما أدرك العالم أن مشكلة التلوث البيئي بدأت تتصاعد، ويتسع نطاقها، ويتعدى ضررها، وتظهر آثارها على سلامة الأرض ومن عليها، بادر حينئذ العالم إلى إنشاء العديد من المنظمات، والهيئات، والمؤسسات وعقد كثير من المؤتمرات التي تعنى بشؤون البيئة، لوضع الحلول، وإبرام اتفاقيات في هذا الشأن، لكن المشكلة تكمن في شكلية هذه المنظمات، والهيئات، وتعليق توصيات المؤتمرات باعتبارها غير ملزمة، بل ومعارضة من كبرى الدول التي تخشى من انخفاض معدلات النمو الاقتصادي.

ولعل أبرز مثال يوضح ذلك: مؤتمر قمة الأرض ريو+٥، والذي عقد بعد

---

(١) انظر: الإنسان والبيئة د. حمزة العباسي، استشاري الصحة العامة، باب تلوث المياه صـ ٢٥ فما بعدها، التلوث المعضلة والحل للأستاذين د. أبو بكر سالم، ود. نبيل عبد المنعم صـ ١٥ فما بعدها، قضايا بيئية معاصرة د. زين الدين عبد المقصود صـ ١٢٩ فما بعدها.

خمس سنوات من انعقاد قمة الأرض السابق اي في عام ١٩٩٧م، في مقر الأمم المتحدة في نيويورك، وحضره أكثر من ستين رئيساً، وأكثر من (٣٠٠٠) شخص يمثلون (١٧٣) دولة، وكان الهدف الرئيس تدارس ما تم تطبيقه في المؤتمر السابق،وقد أجمع الحضور على أن وضع البيئة أسوأ مما كان قبل خمس سنوات، وقد حاولت دول أوروبا حمل المؤتمرين على اتخاذ قرارات لخفض انبعاث الغازات، وبخاصة ثاني أكسيد الكربون لتأثيراته الخطيرة، لكن الولايات المتحدة عارضت ذلك، مسوغة موقفها بأن السياسة التي تؤدي إلى ذلك سوف تخفض النمو الاقتصادي، ولم تتخذ في هذه القمة أية قرارات تذكر سوى التأكيد على مقررات قمة الأرض الأولى.[١]

وهذا مثال صارخ يجلي لنا أنانية الأطماع التي لا تعترف إلا بمستوى رفاهيتها مهما كلف الأمر.

(١) انظر: البيئة والتنمية د. يوسف السلوم صـ ٤٨، أحكام البيئة في الفقه الإسلامي د، السحيباني صـ ٥٧.

المبحث الثالث
العلاقة بين التوازن البيئي والإنسان في القرآن ومدى صلتهما بالتلوث البيئي

لابد من ملاحظة جملة من القضايا والمعطيات، يمكن أن تسهم إسهاماً مباشراً في تحديد ماهية هذه العلاقة.

أولاً: لما كان القرآن الوصية الخالدة، والرسالة الخاتمة فقد أودع الله فيه من الأسس والمبادئ والقوانين التي تحكم علاقة الإنسان ببيئته، وترشده إلى السلوك الأمثل في استغلالها، انطلاقاً من الهدف الأسمى، والمقصد الأعظم، المتمثل في خلافة الإنسان في الأرض، واستعماره فيها قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(١)

ولا شك أن إعمار الأرض لا يكون إلا بتنفيذ التوجيهات السماوية في استصلاحها، لتكون بعد ذلك نبراساً ومنهجاً تستنير به البشرية جمعاء في المحافظة على البيئة من أي تخريب أو تدمير.

ثانياً: أن التوازن البيئي يقوم على أساس التكامل بين عناصر البيئة، وأن كل عنصر أوجده الله بقدر، غاية في الدقة وبصفات منسجمة مع ما يكفل للبيئة توازنها، وأن كل عنصر في البيئة له أهميته، ومكانته المناطة به، فلا يتصور أن وجوده عديم الفائدة، وإلا انقرض منذ زمن بعيد، وعليه فإن وجوده في حد ذاته هو تحقيق للتوازن البيئي.

ولو أخذنا الصين مثلاً – معجزة القرن الجديد – لنرى ماذا قدمت في موضوع توازن البيئة، نجد أنه كان لديها مشكلة، وهي أن العصافير كانت تأكل من محصول الأرز (٣٪)، فأرادوا منع ذلك، فقاموا بقتل العصافير فظهرت

(١) سورة هود آية (٦١).

مشكلة أكبر منها وهي دودة الأرض التي تأكل (٥٠٪) من المحصول، فهذا هو التوازن.[١]

وثمة صور أخرى في تحقيق هذا التوازن يمكن أن نجدها في الماء، أصل كل حي، فقد خلقه الله تعالى بمقادير محددة دون زيادة أو نقصان، وعلى حالات محددة بأن جعله سائلاً أو متجمداً أو غازياً وجعله عذباً فراتاً، أو ملحاً أجاجاً لحكمة لا يعلمها إلا هو والراسخون في العلم.[٢]

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.[٣]

وقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾[٤]

ومن هنا تجلت حكمة الله في الإنزال، فلا ينزل كثيراً فيغرق أو يفسد، ولا ضئيلاً فيكون الجدب والقحط، بل نزل بتقدير وحكمة.

على الرغم من أنه عصب الحياة، فإن كثرته ربما أدت إلى ارتفاع منسوب البحر وبالتالي حدوث الفيضانات، لذلك جاء نزوله متوازناً بين ما ينزل من السماء من قطر وبين ما يصعد إليها من أبخرة.

بل حتى على "مستوى الحياة الاجتماعية يمكننا أن نلمس هذا التوازن، حيث هناك توازن متحرك يقوم على اصطراع القوى وتنافس الطاقات، ولولا هذا التدافع والتسابق والتزاحم إلى الغايات لسكنت الحركة، ولتجمدت الحياة، ولتوقف النشاط البشري".[٥]

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٦]

---

(١) انظر: مقال في الانترنت – صفحة واحدة فقط – بعنوان: الإسلام أرسى قواعد حماية البيئة د. ليلى بيومي.
(٢) قضايا البيئة من منظور إسلامي مهندس بدوي الشيخ صـ ٦٨.
(٣) سورة المؤمنون آية (١٨).
(٤) سورة الرعد آية (١٧).
(٥) انظر: التلوث وحماية البيئة د. محمد منير حجاب صـ ٢٧.
(٦) سورة البقرة آية (٢٥١).

هذا، وقد حفل القرآن الكريم بكثير من الآيات التي تؤكد هذه الدقة، وهذا التوازن في جميع خلق الله.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾[1]

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾.[3]

فتقدير الخلق هو إحداث التوازن الذي منع تضارب عناصر البيئة بعضها ببعض، فلكل عنصر مهمة خاصة.

وقال تعالى أيضاً: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[4]

قال الخازن في تفسير هذه الآية: يعني أنه تعالى لما قدم هذه الأشياء – يعني الجبال – كلها التي لا يقدر عليها غيره جعل ذلك الصنع من الأشياء التي أتقنها وأحكمها وأتى بها على وجه الحكمة والصواب.[5]

بل إن المتأمل في أول سورة الرحمن سيجد أن القرآن بعد أن ذكر خلق الإنسان والشمس والقمر والنجم والشجر تعقبها بذكر ثلاث آيات فيها التنصيص على ذكر الميزان، حيث قال سبحانه ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾[6] فقرر في الأولى أن موازين دقيقة نصبت مع رفع السماء تحكمها وتضبط حركتها، وفي الثانية حذرنا من التلاعب أو العبث بهذا الميزان،

---

(١) سورة الفرقان آية (٢).
(٢) سورة القمر آية (٤٩).
(٣) سورة الرعد آية (٨).
(٤) سورة النمل آية (٨٨).
(٥) تفسير الخازن (٣/ ٣٥٥).
(٦) سورة الرحمن آية (٧–٩).

وفي الثالثة حثنا على أهمية إقامة الوزن بالقسط، وكل ذلك من أجل المحافظة على عوامل البقاء على كوكب الأرض، وهذا يسهم في المحافظة على البيئة.

وكل هذه الآيات وغيرها تحث وتوجب المحافظة على البيئة ضمناً باعتبار أن التعرض للشيء المتقن بالتعديل أو التدخل سينتج عنه إفساد له، حيث إن علاقة الإنسان بالبيئة هي أنها مسخرة له بشكل متوازن، فأي عبث هو تحطيم لهذا التوازن، وحصول اختلالات العناصر البيئية المتكاملة.

قال القاسمي في تفسيره: "وخلق كل شيء فقدره تقديرا" أي أحدثه إحداثاً مراعياً فيه التقدير والتسوية لما أريد منه، كخلق الإنسان للإدراك والفهم، والنظر والتدبير، واستنباط الصنائع المتنوعة، ومزاولة الأعمال المفيدة، وكذلك كل حيوان وجماد خلق على الصورة المقدرة، بأمثلة الحكمة والتدبير لأمر ما، ومصلحته مطابقاً لما قدر له، غير متجاف عنه.(١)

وقال تعالى أيضاً في تحقيق هذا التوازن ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾(٢)

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾(٣)

فالسموات والأرض والجبال والأنهار ما هي إلا لضمان ذلك التوازن، وحتى تستمر الحياة على وجه الأرض، فلو تدخل الإنسان – مثلاً – وأراد إزالة الجبال، فإنه يسهم في عدم استقرار الأرض، وهو ما وصفه القرآن بقوله "﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

ثالثاً: أن العلاقة بين الإنسان والبيئة في بدايتها، ومنذ أن استخلف الخالق الإنسان في الأرض، هي علاقة حميمة تقوم على أساس إشباع الإنسان بمتطلباته الأساسية من مأكل، وملبس، ومسكن، لكن هذه العلاقة ما لبثت أن

---

(١) محاسن التأويل (٥/٣٣٥).
(٢) سورة النمل آية (٦١).
(٣) سورة لقمان آية (١٠).

تشابكت وتطورت وتعقدت حتى أصبحت علاقة صراع ومواجهة، وذلك أن الإنسان انتقل من مرحلة الإشباع إلى مرحلة استنفاد موارد البيئة دون انضباط أو معايير ثابتة – تقنن هذه العلاقة، فاندفع الإنسان بنهم وشراسة مفرطة، كأنه الوحيد الذي يعيش على كوكب الأرض.

لذلك فإن القرآن حينما وضح استخلاف الإنسان في هذه الأرض، فإنه رسم الطريق القويم في تحقيق علاقة متوازنة تحفظ للإنسان كيانه، وللبيئة مواردها وإمكاناتها.

ويعبر أحد الباحثين عن هذه العلاقة فيقول: "فقد أصيبت العلاقة بين الإنسان وبيئته بكثير من مظاهر الخلل والتدهور، وبدأت تبرز الكثير من المشكلات البيئية التي نعاني منها اليوم، مثل مشكلة الجوع والتلوث، والتصحر، وتدهور المحيط الحيوي، لقد وصلنا – حقاً – إلى نقطة أحوج ما نكون فيها إلى العودة الصادقة بتعاليم ديننا الحنيف لننقذ أنفسنا مما نعانيه من مشكلات عديدة".[١]

ويعبر آخر فيقول: "والإنسان في غمرة اكتشافاته، واختراعاته، وغروره بقوته أخذ يتعامل مع محيطه على أنه ملكه ومن حقه، وأن له ما شاء من العمل مما أثر سلباً على الأنظمة البيئية، وأدى بذلك إلى إفساد البيئة".[٢]

ومما هو معلوم: أن القرآن الكريم، أرسى كثيراً من القواعد التي تدلنا على الطريقة الآمنة في مسيرة حياتنا البيئية.

ولعل من أهم هذه القواعد، هي الدعوة القرآنية الواضحة إلى النهي عن الإسراف؛ لأنه سلوك يستنزف دون أن يعطي، ويبدد دون أن يجمع؛ بل إن الترهيب القرآني، والتحذير من هذا السلوك، بلغ حد عدم ترتيب محبة الله في حق كل من اتصف بذلك.

---

(١) البيئة والإنسان د. زين الدين عبد المقصود صـ ٢٣.

(٢) انظر: محاضرة بعنوان: الحفاظ على البيئة للشيخ / محمد خير طرشان – موقع رسالتي – فقرة (٧).

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[١]

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[٢]

فالتعامل المتوازن مع موارد البيئة دون إسراف أو تقتير هي صفة الاعتدال التي حثنا عليها القرآن الكريم.

رابعاً: أن ملكية الإنسان لعناصر البيئة هي ملكية انتفاع، وليست ملكية مطلقة، بدليل أن كثيراً من النصوص القرآنية تضيف الملكية إلى الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾[٣]

وقال أيضاً: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾[٤]

وقال في موضع ثالث: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾[٥]

يقول الشيخ شلتوت: إذا كان المال مال الله، وكان الناس جميعاً عباد الله، وكانت الحياة التي يعمرونها بمال الله، وهي لله، كان من الضروري أن يكون المال – وإن ربط باسم شخص معين – لجميع عباد الله، يحافظ عليه الجميع، وينتفع به الجميع.[٦]

ثم إن وجود الإنسان في هذه الحياة مؤقت، واستخلافه فيها مؤقت أيضاً، ولذلك كان انتفاعه بمواردها مؤقتاً.

---

(١) سورة الأعراف آية (٣١).
(٢) سورة الإسراء آية (٢٩).
(٣) سورة الحديد آية (٧).
(٤) سورة النور آية (٣٣).
(٥) سورة طه آية (٦).
(٦) انظر: عقيدة وشريعة محمود شلتوت صـ ٢٥٧.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1]

وهذا التحديد الزمني للبقاء، يترتب عليه تحديد للاستخلاف والانتفاع، ومن هنا تبرز أحقية الأجيال المتعددة في الانتفاع بالموارد الطبيعية، وضرورة أن يعي الإنسان هذه الحقيقة؛ لكي يحفظ للأجيال التي بعده حقها في الانتفاع بما خلق الله في هذا الكون.[2]

ومن جميع ما سبق ننتهي إلى أن القرآن أرسى من القواعد، والأسس الحاكمة لسلوك وتصرفات الإنسان مع محيطه، وبيئته، ما يضمن سلامته وسلامتها، وأن عناصر البيئة ومكوناتها، يكمل بعضها بعضاً، ويوازن بعضها بعضاً، بشرط أن لا يكون هناك تعد أو تدخل مدمر من قبل الإنسان، وهو ما يعني أن طبيعتها متوازنة ومتكاملة.

---

(١) سورة البقرة آية (٣٦).

(٢) انظر: بحث منشور على الانترنت بعنوان (الإسلام والبيئة وفاق أم شقاق) د. محمد فتح الله الزيادي – فقرة (١٠).

المبحث الرابع
التحذيرات القرآنية من الإفساد وعلاقة ذلك بالتلوث البيئي

البند الأول: النهي عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها

لابد من فهم بعض معاني الفساد في ضوء السياق العام للقرآن، إذ القرآن نسيج مترابط يفسر بعضه بعضاً، فحينما نقرأ على سبيل المثال أن الله سخر للإنسان جميع ما في الأرض من ماء ونبات وحيوان، وذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]

ثم نقرأ بعد ذلك أن الله نهى عن الإفساد في الأرض فقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[3]

فلا يمكننا حينئذ أن نفهم معنى الإفساد في الأرض، إلا أنه تخريب وتدمير لذلك الذي سخره الله للإنسان، من عناصر تسهم في بقاء الإنسان، واستمراره من ماء ونبات وحيوان وغيره.

البند الثاني: الإفساد هو السبب الأبرز في تلوث البيئة

قد يتبادر للذهن أن الفساد منحصرٌ في نطاق، وإطار لا يتعدى المعصية وآثارها من شؤم، وقلة البركة، والظلم، والجور، وغيرها من المعاني المترتبة على ذلك، إلا أن تدبر آيات القرآن في دوران بعض معاني الفساد، ينتهي بنا إلى أنه ربما كان مرادفاً لتدمير البيئة وتخريب كل ما عليها.

فإذا تأملنا مثلاً قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[4]

---

(١) سورة البقرة آية (٢٩).
(٢) سورة الحج آية (٦٥).
(٣) سورة الأعراف آية (٥٦).
(٤) سورة البقرة آية (٢٠٥).

فلا ريب أن الزروع والثمار هي مقومات الحياة، وأن النسل هو عنصر استمرار النوع البشري والحيواني، وبالتالي فإن السعي في إهلاك ذلك وإفساده هو تخريب وتدمير للبيئة ومكوناتها.

ونظراً لعظم سوء عاقبة الفساد، فقد اعتبره القرآن سبباً رئيساً لهلاك الأجيال، وبالتالي تدمير الحياة لولا إدراك طائفة من العقلاء بضرورة الأخذ على يد المفسد

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]

وعليه فإن التلوث البيئي لا يكون لولا التعسف في التعامل مع عناصر الحياة.

البند الثالث: العلاقة بين الفساد البيئي والمعصية.

يلاحظ القارئ أن ثمة علاقة وطيدة بين حصول الفساد ومعصية العباد في القرآن الكريم، فما حصل لقوم سبأ من خراب العمران، وانهيار السدود، ما كان ليكون لولا إهمال الأوامر الإلهية.

وقد قص القرآن علينا؛ ذلك لنتجنب مسلكهم؛ ولكي لا نقع فيما أصابهم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾[2]

فبعد أن فصلت الآيات النعمة التي كانوا فيها، ولم يحافظوا عليها،

---

(١) سورة هود آية (١١٦).
(٢) سورة سبأ آية (١٥-١٧).

وشخصت جذور المشكلة، ختمت الآيات ببيان سبب ما آل إليه حالهم، وصارت إليه أوضاعهم، فقال سبحانه ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ أي بسبب كفرهم.

قال ابن كثير عن قوم سبأ: كانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم، واتساع أرزاقهم، وزروعهم، وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل، تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده، وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل، والتفرق في البلاد.(١)

وما قصة أصحاب الجنة عنا ببعيد التي حكاها القرآن في سورة القلم، ولا قصص أقوام الأنبياء، وكيف تسبب جحودهم وكفرهم بسوء مصيرهم في الدنيا قبل الآخرة.

ولعل الذي يستقصي مواضع الإفساد في القرآن(٢) سيتجلى له بوضوح أن الفساد في الأرض لا يستند على قانون سماوي ولا إلى مبادئ العدل، وإنما يرتكز أساساً على أهواء البشر ومطامعهم، فلو تمسك الناس بمنهج الخالق لأدى ذلك إلى صلاح أحوالهم ومن ثم انعكس على بيئتهم.

البند الرابع: تحذير القرآن من إفساد البر وماء البحر.

تغايرت عبارات المفسرين في توجيه معنى الفساد الوارد في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣)

ويتجلى هذا التفاوت في تحديد معنى الفساد، فبعضهم قال: بأنه الشرك،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٣٨)

(٢) انظر مثلاً سورة المؤمنون (٧١)، الأعراف (٥٦)، البقرة (٢٧) المائدة (٦٤)، القصص (٨٣).

(٣) سورة الروم آية (٤١). =

وبعض آخر قال: بأنه الجور والظلم، بينما ذهب فريق ثالث إلى أن معنى الفساد هو ذهاب البركة، وذهب غيرهم إلى أنه القحط أو الجدب.[1]

ويبدو أن المفسرين فسروا معنى الفساد انطلاقاً من قاعدة معارفهم المتاحة، والمتوافرة آنذاك.

ويلاحظ هنا أن القرآن عبر عن ذلك بكلمة "ظهر" بالماضي، وذلك مبالغة منه في تحقق وقوع هذا الشيء، وكأن الفساد وقع في الماضي، وانتهى الأمر، أو أن يكون ظهوره في الماضي ما لبث أن اتسع نطاقه وتعددت أشكاله على النحو الذي بلغه الآن.

إلا أن معنى الفساد أخذ يتسع شيئاً فشيئاً عند المعاصرين، وذلك بعد اتساع دائرة المعطيات العلمية، واكتشاف ظواهر جديدة يمكن أن تدخل تحت مسمى الفساد، حيث عمدوا إلى توظيفها والاستفادة منها في كشف معالم جديدة لمفهوم الفساد.

وعليه فإن الفساد الذي حذرنا منه القرآن هو معنى شامل يمكن أن ينطبق على كل ما يصلح أن يصدق عليه أو يتناوله معنى الفساد، من شرك ومعصية، وظلم أو أمور حسية كالذي تقذفه المصانع كل يوم من نفايات ومخلفات في مياه الأنهار والبحار تجعلها غير صالحة للاستهلاك الآدمي، ناهيك عما تقذفه السفن من زيوت وشحوم من شأنه أن يفسد الحياة ويدمر البيئة.

فالتعبير القرآني عن الفساد أشمل وأوسع في الاستعمال، فلا يقتصر على مجرد الاعتداء على البيئة ومواردها، وإنما يمتد إلى كل ما من شأنه أن يخرج بالشيء عن حالة الصلاح والاعتدال: من شرك، وظلم، وتلويث المياه، والهواء.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٤١٧/٣)، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٤٠/١٤)، وبعد أن نقل ابن جرير الطبري في تفسيره (١٩١/١٠) خلاف أهل التفسير حول تحديد المراد بالبحر، انتهى إلى أن البحر بحران، بحر ملح، وبحر عذب وهما جميعاً عند العرب بحر، ولم يخصص جل ثناؤه بحراً دون بحر.

والمعنى أن هذا الفساد لا يحدث إلا بما اقترفته يد الإنسان لأنه المسؤول بتصرفاته عن هذا التلوث.

قال أبو العالية: من عصى في الأرض فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة.[١]

لذا نجد أن القرآن خص البر والبحر دون السماء لأنها الأماكن التي يعيش في مدنها الإنسان.

ولذلك يدخل تحت مسمى الفساد جميع وجوه الاعتداءات المتنوعة التي أشار إليها القرآن بقوله ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ وهو تعبير دقيق يفيد سائر وجوه الكسب والتصرفات التي تفضي إلى إفساد البر والبحر.

ولكن ينبغي التنبه إلى ضرورة الفصل بين دلالتين تضمنتهما الآية الكريمة.

الأولى: ظهور الفساد وذلك في قوله تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾. والدلالة الثانية: كسب الجوارح وذلك في قوله تعالى ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾. وعليه فإن ظهور الفساد في البر والبحر هو نتيجة لما كسبته أيدي الناس، وهي أسباب من ظلم وشرك ومعصية أوصلت إلى تلك النتائج من قحط، وتلوث، وذهاب البركة.

وفي ضوء ذلك كان لابد من الفصل بين السبب والنتيجة في ذلك.

وينبغي التنبيه – أيضاً – إلى أنه حتى ارتفاع الصوت الذي يؤدي إلى إزعاج الآخرين وهو ما يسمى بالتلوث الضوضائي، يمكن أن يدخل تحت مسمى الفساد.

فقد أثبتت "الدراسات المعاصرة أن أكثر من عشرين مليون في الولايات المتحدة، فقدوا سمعهم بسبب التلوث الضوضائي".[٢]

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٤٤٥)

(٢) انظر: بحث في مجلة الاقتصاد الإسلامي بعنوان: سمٌ اسمه الضجيج د. غالب خلايلي صـ ٧٠.

وإذا كان التسبب في قتل إنسان ما يعد جريمة، فإن تلوث الحياة البيئية من ماء وهواء ونبات يتسبب في قتل ملايين من الأنفس البريئة التي حرم القرآن قتلها في أكثر من آية.

وننتهي من ذلك إلى أن القرآن سبق الغرب في تقرير وتفعيل كل ما من شأنه أن يحافظ على سلامة البيئة.

المبحث الخامس

تطابق نتائج مؤتمر فرنسا مع قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

عقد علماء البيئة في فرنسا (مؤتمر باريس – فبراير ٢٠٠٧م) وخرجوا بثلاث نتائج اتفق عليها أكثر من (٥٠٠) عالم من مختلف دول العالم.

١ – أن نسب التلوث بدأت تتجاوز حدوداً لم يسبق لها مثيل – من قبل – في تاريخ البشرية، وهو ما يؤدي إلى إفساد البيئة في البر والبحر، ففي البر هنالك فساد في التربة، وفساد في المياه الجوفية وتلوثها، وفساد في النباتات، حيث اختل التوازن النباتي على اليابسة، وفي البحر بدأت الكتل الجليدية بالذوبان بسبب ارتفاع حرارة الجو، وبدأت الكائنات البحرية بالتضرر نتيجة ذلك.

٢ – اتفق المؤتمرون على أن الإنسان هو المسؤول عن فساد البيئة، ويقولون: إن الناس بسبب إفراطهم وعدم مراعاتهم للتوازن البيئي الطبيعي كانوا سبباً في فساد البيئة، فالحروب والتلوث والإفراط في استخدام التكنولوجيا، دون مراعاة البيئة وقوانينها، كل ذلك أدى إلى تسارع في زيادة نسبة الكربون[١] في الجو، حيث تضاعفت نسبته أكثر من عشرة أضعاف منذ بداية الثورة الصناعية (أي منذ ٣٠٠ سنة).

فهناك مثلاً ظاهرة تسمى الاحتباس الحراري، وهي عبارة عن احتباس الغازات الناتجة من المصانع داخل الغلاف الجوي، وترفع درجة حرارته، وتؤدي إلى ازدياد نسبة الكربون الذي حذر منه الدكتور جفري شانتون – أحد علماء البيئة – في جامعة فلوريدا، وقال بأن ازدياد نسبته في الغلاف الجوي أصبحت تنذر بفساد أرضنا.

---

(١) انظر: أضراره في المبحث الثاني من هذا البحث.

٣ – وجه العلماء في نهاية اجتماعهم نداء عاجلاً، وإنذاراً لجميع دول العالم أن يتخذوا الإجراءات السريعة، والمناسبة للحد من التلوث لتلافي الأخطار القادمة الناتجة عن التلوث الكبير في الجو والبحر واليابسة.[١]

وهذه النتائج التي انتهى إليها مؤتمر باريس، هي تلك النتائج التي حذرنا القرآن منها منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة من فساد وتلوث يصيب البر والبحر على حدٍ سواء، وهو ما نجني آثاره اليوم، من تقلص المساحات الخضراء يوماً بعد يوم، وما نشاهده من تلوث مياه البحار والمحيطات، وكل ذلك بما كسبت أيدي الناس.

(١) انظر: نتائج مؤتمر باريس – الانترنت – موقع عبد الدائم الكحيل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بعنوان: الفساد البيئي صـ ١ فما بعدها.

المبحث السادس
جهود الهيئة العامة للبيئة الكويتية

أسست الهيئة العامة للبيئة بقانون رقم (٢١) لسنة ١٩٩٥م، وتهدف إلى إصدار مجموعة من القرارات والتوصيات التي تكفل منع التلوث أو التخفيف من حدته أو مكافحته والمحافظة على البيئة ومواردها الطبيعية، والتنوع البيولوجي، وإعادة تأهيل المناطق التي تدهورت بسبب الممارسات الضارة، وإقامة المحميات البرية والبحرية وتحديد مناطق عازلة حول مصادر التلوث الثابتة، ومنع التصرفات الضارة أو المدمرة للبيئة وتشجيع أنماط السلوك الإيجابي.(١)

ولعلي أتطرق إلى أهم هذه القرارات والتوصيات.

البند الأول: قرارات الهيئة وإنجازاتها

١ – توقيع الهيئة العامة للبيئة مع شركة نفط الكويت قرار شراكة يمتد خمس سنوات يتم بموجبه إعطاء الصفة الإشرافية للهيئة لمراقبة التزام القطاع النفطي بخفض إنتاجاته الغازية خلال السنوات المقبلة.(٢)

٢ – إصدار قرار بإعادة تنظيم إجراءات، واعتماد وتجديد المكاتب والشركات الاستشارية البيئية المتخصصة في مجال الاستشارات البيئية، أو إعداد دراسات تقييم المردود البيئي، ويهدف هذا القرار إلى وضع أسس تقييم وتنظيم واضحة للمكاتب، إضافة إلى تحديد جزاءات تدرج للعقوبات عليها في حال مخالفتها.(٣)

٣ – تنفيذ القرارات العالمية الخاصة بالالتزام بالنسب المقررة عالمياً للحد من الملوثات المؤثرة على طبقة الأوزون.(٤)

---

(١) انظر: موقع الهيئة العامة للبيئة في الكويت – الانترنت.

(٢) انظر: مؤتمر صحفي للمدير العام للهيئة د. صلاح المضحي – هنا اليوم – على الانترنت.

(٣) موقع الهيئة العامة للبيئة – دولة الكويت – مديرة إدارة التخطيط سميرة الكندري.

(٤) تصريح مدير عام الهيئة للبيئة لجريدة القبس الكويتية ٢٠١٠/٣/٢٠م.

٤ – تنشيط دور إدارة العلاقات العامة، والتوعية البيئية من خلال رسائل توعوية ممثلة في عقد المحاضرات، التي تكون موجهة لجميع الفئات السنية (العمرية) على مستوى مدارس دولة الكويت، وذلك لتكريس وترسيخ المفهوم البيئي في ظل التطور التكنولوجي الذي يشهده العالم حالياً.(١)

٥ – توقيع عقد تأسيس نظام للرقابة البيئية، وقاعدة بيانات المعلومات الجغرافية لدولة الكويت بحضور مسؤولي الهيئة وخبراء البيئة، وممثلي شركة العرفج الهندسية المنفذة للعقد، ومن شأن هذا النظام أن يطور من القدرات في مراقبة المواقع والأنشطة البيئية.(٢)

٦ – القيام بحملات تفتيشية مفاجئة كل عام لمصانع تعبئة المياه المعدنية، وأخذ عينات للتأكد من مطابقتها للمعايير الصحية الدولية ثم إعلان النتائج بكل شفافية حسب تصريح المصدر.(٣)

٧ – قرار بتشكيل لجنة هدفها جعل الكويت في عام ٢٠١٢م خالية من البلاستيك غير القابل للتحول لما في ذلك من سلامة البيئة الكويتية، وحمايتها من التلوث.

وقد ثمنت الهيئة الاستجابة السريعة من المصانع لقرار إنتاج البلاستيك القابل للتحول وإعطاء المصانع المدة الكافية لإنتاج هذا النوع من الأكياس والاستفادة من تجارب الآخرين.(٤)

---

(١) تصريح للدكتور / خالد العنزي – مدير إدارة العلاقات العامة لوكالة الأنباء الكويتية – كونا –.

(٢) انظر: جريدة الوطن الكويتية بواسطة الصحفي محمد خالد ٢٠٠٩/٦/١٠م.

(٣) تصريح الأستاذ محمد العنزي – مدير إدارة الصناعية في الهيئة – خلال مؤتمر صحفي نشر في جريدة " الجريدة " الكويتية ٢٠١٠/٣/٢٧م.

(٤) انظر: مدونة البيئة والمياه للدكتور / مجد جرعتلي – انترنت – ٩ مايو ٢٠١١م.

البند الثاني: توصيات الهيئة

١ – التوصية بإغلاق نهائي لعدد من المصانع لعدم التزامها بالمعايير البيئية الأمر الذي يتسبب بأضرار جسيمة ينتج عنها أضرار صحية.

٢ – ومن أبرز التوصيات أيضاً: فرض عقوبات مالية كتعويض ضد أصحاب منشآت منطقة عشيرج، بسبب الدمار البيئي الذي لحق بجون الكويت.

٣ – التوصية برفع سقف الغرامة في حق المصانع والمنشآت والأفراد الذين يقومون بمخالفات وانتهاكات ضد البيئة البرية والبحرية والجوية إلى عشرة آلاف دينار للمخالفة الواحدة، وجارٍ عرضه على الاجتماع المقبل لمجلس إدارة الهيئة العامة للبيئة لاعتماده رسمياً.(١)

٤ – التنسيق مع الإدارة العامة للمرور للعمل على إيجاد حل جذري للتلوث المنبعث من المركبات، مثل إلزام سائقي السيارات بوضع أجهزة فلترة على أماكن خروج عوادم السيارات من أجل التقليل من انبعاث أول أكسيد الكربون.(٢)

٥ – ضرورة التحرك السريع لمكافحة التصحّر في مناطق الزراعة المروية، ومنها تصويب اختلال التوازن بين الري والصرف، ومن خلال السيطرة على جميع الآبار الفوارة بمنطقة الوفرة الزراعية، والتحول إلى وسائل الري الحديثة، إضافة إلى تحسين خصائص التربة.(٣)

وهذا غيض من فيض، ونماذج لتلك القرارات والانجازات والتوصيات التي تقوم بها الهيئة العامة لحماية البيئة، أو الحد من آثار التلوث.

---

(١) مقال: جريدة الرأي العام بتاريخ ٢٠١١/٨/٢٤م.

(٢) تصريح لجريدة القبس الكويتية، مدير عام الهيئة للبيئة ٢٠١٠/٣/٢٠م.

(٣) انظر: تصريح مديرة إدارة التربة والأراضي القاحلة في الهيئة العامة للبيئة – فرج منصور – مقال في الانترنت – شؤون بيئية.

الخاتمـــة

يجدر بي بعد كتابة هذه الورقات، والفراغ من تحريرها أن أستخلص أهم النتائج:

١ – أن التسابق المحموم، وغير المنضبط نحو تحقيق أعلى معدلات نمو اقتصادي، والوصول إلى قمة وذروة التطور الصناعي أدى إلى حدوث الاضطرابات في التوازن الطبيعي على سطح الأرض.

٢ – أن القرآن الكريم سبق كل الهيئات، والمنظمات في إرساء قواعد صارمة، ومعايير ثابتة في المحافظة على سلامة البيئة من التلوث، انطلاقاً من أنه دين ينظم شؤون الحياة في كل صغيرة وكبيرة.

٣ – سعى القرآن خلال توجيهاته إلى خلق ثقافة بيئية حاكمة تضبط تصرفات الإنسان، وترسم حدود تعامله مع البيئة.

٤ – أن الفساد ليس من طبيعة ونظام كوكب الأرض، وإنما بما كسبته أيدي ساكنيه؛ لذلك عبر عنه القرآن بلفظ " ظهر ".

٥ – أن الفساد ليس مجرد الشرك والمعصية، وإنما يتعداها لتناول كل ما يمكن أن يصدق عليه مسمى الفساد، حسياً كان أو معنوياً.

٦ – أن ملكية الإنسان لموارد وخيرات الطبيعة هي ملكية انتفاع دون إسراف وليست ملكية مطلقة.

٧ – إذا كان قتل الإنسان جريمة، فإن التسبب في تلوث البيئة يعد أمَّ الجرائم.

٨ – أن التوازنات تتناول كل شيء حتى على مستوى نزول الماء والرزق، فكل شيء بحكمة وقدر دون إفراط أو تفريط.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب

- الاحتباس الحراري – جمال كامل العبايجي – عمان – مكتبة المجتمع العربي – ٢٠٠٩م.
- الاحتباس الحراري الدفيئة الجوية – علي حسن موسى – دار دمشق للطباعة – ٢٠٠٧م.
- أحكام البيئة في الفقه الإسلامي – د. عبد الله بن عمر السحيباني – دار ابن الجوزي – الدمام – ط ١ – ١٤٢٩هـ– ٢٠٠٨م.
- الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ محمود شلتوت – دار الشروق – القاهرة.
- الإنسان وتلوث البيئة – الأستاذ محمد السيد أرناؤوط – الدار المصرية اللبنانية – ط ١ – ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.
- البيئة مشكلاتها وقضاياها وحمايتها من التلوث "رؤية إسلامية" – مهندس: محمد عبد القادر الفقي – مكتبة ابن سينا القاهرة.
- بيئة من أجل البقاء – د. سعيد الحفار – الناشر: دار الثقافة للنشر والتوزيع – ط ١ – ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
- البيئة والإنسان "رؤية إسلامية" – زين الدين عبد المقصود – دار البحوث العلمية – الكويت – ط١–١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.
- البيئة والتنمية – د. يوسف السلوم – مكتبة العبيكان – الرياض – ط ١ – ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م.
- تفسير ابن كثير المسمى تفسير القرآن العظيم لإسماعيل بن كثير الدمشقي – ت: ٧٧٤هـ – دار المعرفة – بيروت – ١٤١٢هـ – ١٩٩٣م.
- تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل لأبي محمد الحسين بن مسعود – ت: ٥١٦هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١– ١٤١٤هـ – ١٩٩٢م.

- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل لعلي بن محمد بن إبراهيم – ت: ٧٢٥هـ– دار الكتب العلمية – لبنان – ط ١ – ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.
- تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري – ت ٣١٠هـ – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.
- تفسير القرطبي المسمى الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد الأنصاري – ت: ٦٧١هـ – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط ١– ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.
- تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل – لمحمد جمال الدين – ت: ١٣٢٢هـ – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي – مؤسسة التاريخ العربي – بيروت – ط ١ – ١٩٩٤م.
- التلوث المعضلة والحل للأستاذين – د. أبو بكر صديق سالم، د. نبيل عبد المنعم – مركز الكتب الثقافية – لبنان – ط ١ – ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.
- التلوث وحماية البيئة – قضايا البيئة من منظور إسلامي – د. محمد منير حجاب – دار الفجر – القاهرة – ط ٢ – ٢٠٠٠م.
- سمٌ اسمه الضجيج – د.غالب خلايلي – مجلة الاقتصاد الإسلامي – دبي – العدد (١٣٧) عام ١٩٩٢م.
- قضايا بيئية معاصرة – المواجهة والمصالحة بين الإنسان وبيئته – دار البحوث العلمية – الكويت – ط ٢ – ١٩٩٨م.
- قضايا البيئة من منظور إسلامي – مهندس بدوي الشيخ – الدار العربية للنشر – القاهرة – ط ١ – ٢٠٠٠م.
- لسان العرب لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور – دار صادر – بيروت.
- مجلة التنمية والبيئة – مجلة شهرية يصدرها جهاز شؤون البيئة – القاهرة – العدد الخامس – فبراير ١٩٨٧م.

- معجم مفردات القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني - ت: ٥٠٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤١٨هـ /١٩٩٧م.

ثانياً: الانترنت:

- الإسلام أرسى قواعد حماية البيئة - ليلى بيومي - مقال من صفحة واحدة - الموقع السابق.
- تلوث البيئة - د. حمزة العباسي - موقع التلوث البيئي.
- الحفاظ على البيئة للشيخ محمد خير طرشان - موقع رسالتي.
- ظاهرة الأمطار الحمضية - أستاذ الفيزياء حسن يوسف.
- الفساد البيئي - موقع عبد الدائم الكحيل للإعجاز العلمي في القرآن الكريم.
- مدونة البيئة والحياة - موقع الهيئة العامة في البيئة في الكويت.
- موقع الهيئة العام للبيئة في الكويت.